

التصاوير والتماثيل في الحضارة الإسلامية

التصوير في الكتب
لأستاذ جليل

التصوير في (الحضارة الإسلامية) في الحجر والكتاب — كثير. وإذا جدد واستمر بحثُ النابشين وتنقيب المفتشين ظهرت نقائس مضمرة، وبدت بدائع مكنونات، وعرف الناس من آثار تلك المدينة المحمدية ما لم يكونوا قد عرفوه وإن (كتاب الله) لم يذم في آية من آياته تحسناً ولا تجميلاً، ولم يحرم تصويراً ولا تشكيلاً. وهل الخط أو التسطير إلا تديج وتصوير؟ وهل الكتابة أصلها إلا صور؟ وهذه قصور الروائية واللباسية — والقوم حماة الدين وخلفاء المسلمين — فيها الأشكال والتهاويل^(١)

« من كل شيء يرى فيها تماثيل^(٢) »

وقد زار مسلم عربي منذ أشهر قصر هشام بن عبد الملك الذي كشفه النقبون في ناحية أريحاء من أعمال فلسطين^(٣) في السنة الماضية فشهد صوراً ناتئة لوجوه أناس عرب في بقايا الغرف والجدران

قلتُ يوماً لدار قوم تفانوا أين سكانك المزاز علينا
فأجابت: هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا، ولست أعلم أين^(٤)

(١) التهاويل: زينة التصاوير والنقوش والوشى، واحدها تهويل. والتهاويل الألوان المختلفة من الأصفر والأخضر. (اللسان). حولت المرأة بحليها وزينتها إذا راعت الناظر إليها (الفائق)

(٢) عبدة بن الطيب، وصدر البيت (فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة) قال الأنباري: فيها الأسد مصورة. ويروي فيها الذئب، وبعد البيت: في كبة شادها بان وزينها فيها ذبال يضيء الليل مفتول

(٣) فلسطين من أجناد الشام في النهاية: « الشام خمسة أجناد: فلسطين والأردن، ودمشق، وحمص، وقنسرين، وكل واحد منها كان يسمى جنداً أي المقيمين بها من المسلمين القتاتلين » والشام من غزاة إلى الفرات طولاً. وقد مرق الفيرون هذا الاقليم العربي الصغير أي تغريق! مرق الله ملكهم! (٤) تفانى القوم أفنى بعضهم بعضاً. ومراده فتوا (الزراز) من جمع العزيز في (الطمح) للفتح: والوزير جهور بن محمد بن جهور وقد وقف على تصور الأمويين (في الأندلس) وقد تقوضت ابنتها وعوضت من أبيها بالوحوش أفتيتها: قلت يوماً الخ

وكان في رفاقته أحد معارفه فقال مستعجلاً: ما هذا؟ خليفة مسلمين، وأمام دين، وصور وتماثيل!!
فقال المسلم العربي مفاكها مازحاً: لم يكن (المحرم) قد نجم ودونت كتبه في أيام هشام...^(١)

وجاء في تاريخ بغداد لابن الخطيب في وصف دار الخلافة: (٢)
« وفيها — أي دار الشجرة^(٣) في دار الخلافة — شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة، فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصناً، لكل غصن منها شاخات كثيرة^(٤)، عليها الطيور والمصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها ذهب، وهي تماثيل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر. وفي جانب الدار بمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم^(٥) مطارد على رماح يدورون على خط واحد في (الناورد)^(٦) خيلاً وتقريباً^(٧) فيظن أن كل واحد إلى صاحبه قاصد، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك »

وذكر ابن أبي الحديد في (شرح النهج) الكبير: « إنه كان على سيف عضد الدولة بن بويه وأبيه ركن الدولة صورة على (رضي الله عنه)، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه ملكشاه. صورة »

وروي صاحب (التفخ) عن بدر الدين بن الحسن الأربلي المتطبب وصف تصاوير في حمام رأى في بغداد في (دار الملك شرف

(١) استخلف هشام — كما قال الطبري — سنة (١٠٥) وتوفي سنة (١٢٥)

(٢) أبو نصر خواجه خازن عضد الدولة قال: طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها فكان ذلك مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد)
(٣) كانت شجرة من الفضة وزنها (٥٠٠) ألف درهم، عليها أطياف مصروغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها (تاريخ بغداد)

(٤) شاخات: رعارف
(٥) المطرد من الرمح ما بين الجبهة إلى الناحية، والجبهة من السنان ما دخل فيه الرمح

(٦) ناورد: لفظ فارسي وهو في لغتهم بمعنى القتال، وجولان الخيل في الميدان، وفي اللغة الجديدة ناورد جنك، وجولان اسب. والمعنى الثاني استعمله المولودون وغيرهم (شفاء الغليل)

(٧) الحب: السرعة وقيل هو مثل الرمل، ورمل هرول، والتقريب العدودون الاسراع، قرب الفرس إذا رفع يديه معاً ووضعها معاً

الدين هرون بن أمازير صاحب شمس الدين محمد الجويني) تدهش مبصرها ، وتمجز واصفها ، وقد يجد الفتيان الشُّطَار والمتفتون من رجال الليل ما يشبهها اليوم في بيوت في (باريس) .. وربما لا يجدون . وهي الحضارة ، وهو التفنن فيها ... وهذا ما تسهل روايته من وصف الأربيل :

« وأبصرت مياهه وشبابيكه وأما يبيته المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية ، وبمضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة . ثم أراى - بمعنى سانس الحمام - نحو عشر خلوات ، كل خلوة أحسن من صنعة أختها . ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد ففتحه ، ودخل بي إلى دهليز طويل ، كله مرصع بالرخام الأبيض الساذج ، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة ، ورأيت من المعجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة سقالات لا فرق بينه وبين صقال المرأة ، يرى الإنسان سائر بشرته في أى حائط شاء منها . ورأيت أرضها مصورة بفصوص حجر وصفر وخضر ، ومذهبة ؛ وكلها متخذة من بلور مصبوغ ، بعضه أصفر ، وبعضه أحمر ؛ فأما الأخضر فيقال : إنه حجارة تأتي من الروم ، وأما المذهب فزجاج ملبس بالذهب ؛ وتلك الصور في غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة في اللون وغيره . وكل محاسن الصور الجميلة مصورة في الحائط »

وهذا خبر عن مصنف مصور في العلم قد أرسن تأليفه وتصويره أيما إرسان ، وكأنه آخر ما قيل في أمريكا وأوربة في توضيح الكتب بالصور . وإنى لأرويه مؤيداً ومسانداً المقالة الجديدة المفيدة : (التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية) التي أظرفها الناس في (الرسالة) القراء الأديب المتفنن الدكتور أحمد موسى ، والتي زينت لي تصوير هذه السطور :

قال ابن أبي أصيمة في كتابه : (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) في سيرة رشيد الدين بن الصوري^(١) : « ولرشيد الدين

(١) مولده في سنة (٥٧٣) وتوفي سنة (٦٣٩) خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب ، ثم خدم بعده لولده الملك المعظم عيسى بن أبي بكر ، وشهد معه مصافات عدة مع الفرنج لما نزلوا ثمر ديباط ، ولم يزل معه إلى أن توفي وملك بعده الملك الناصر داود فأجره على جانيته - جرائته - وفرض عليه رئاسة الطب الخ (عيون الأنبياء)

ابن الصوري من الكتب كتاب الأدوية المفردة . وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم ، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة ، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها ، لم يذكرها المتقدمون . وكان يستصحب مصوراً ، ومعه الأصباغ والألوان^(١) على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه رشيد الدين ابن الصوري إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي اختص كل منها بشيء من النباتات ، فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصور بحسبها ويجهد في محاكاتها . ثم إنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك أنه كان يرى النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره ، ثم يريره إياه وقت كاله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريره إياه وقت ذويته ويبيسه فيصوره ، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به في الأرض ، فيكون تحقيقه له أتم ومعرفة له أبين »

إن التصوير غير الشرعي وغير المهرى كمُباح . وإن التصوير والتأثيل إنما هي تحاسين وتزايين « قل من حرم زينة الله » ، وإذا كان ذلك للهدى والتذكير والتعليم والتثقيف فقل بالوجوب القاري

(٢) اللين - بالكسر - شيء أسود يجعل في الكحل . قال الرغزنى ، وهو بمنى أخلاطه (التاج)

أغلب مؤلفات
الاستاذ النشائي
وكتابه
الاسلام الصحيح

تم : مكتبة الموند ، شارع الفلكي (باب المنارة)
دمشق : المكتبات العربية الحديثة